مظاهر تدهور النشاط التجاري خلال العصر المريني الثاني (٧٥٩-٨٦٩هـ/١٣٥٨-١٤٦٥م)

د. محمد عيد أحمد(*) أ.د/ حسين مراد(**) أ.د/ سوزي أباظة(***)

مُلخّص:

حظيت التجارة خلال العصر المريني الأول باهتمام السلطة المرينية، إلا أنها تعرضت للتدهور خلال العصر المريني الثاني، وبرز ذلك بوضوح من خلال العديد من المظاهر؛ وتأتي الحروب والفتن، كأحد أبرز مظاهر الفساد التي أدت إلى انهيار حركة التجارة الداخلية ، كما أنّ تدخل الدولة في النشاط التجاري، وفرضها العديد من الضرائب على العاملين به قد اضر بذلك النشاط ، قد أضر بالنشاط التجاري وأدى إلى تدهوره ، وأدى غياب دور المحتسب داخل الأسواق إلى شيوع الفساد في البيوع والتعاملات، وعندما لم تتمكن السلطة المرينية من إعادة الاستقرار والأمن إلى الطرق والمسالك التجارية بالمغرب الأقصى، تخلت القوافل التجارية عن تلك المسالك لصالح بلدان المغرب الأخرى ،وافتقر النشاط التجاري لوسائل النقل المتطورة ،سواء ما يتعلق بالنقل البري أو البحري ، وتكبد النشاط التجاري الخسائر الفادحة ؛نتيجة لتزايد نشاطات القراصنة بالحوض الغربي للبحر المتوسط ، كما كان لليهود دور كبير في تدهور النشاط التجاري وانهياره.

الكلمات المفتاحية: التدهور – العصر المريني الثاني – النشاط التجاري – الاحتكار – الضرائب – الأسواق – الفنادق – القرصنة – وسائل النقل.

(*) مدرس مساعد – كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

(**) أستاذ التاريخ الإسلامي – كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

(***) أستاذ التاريخ الإسلامي – كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

Abstract:

Trade during the first Marinid period received the attention of the Marinid authority, but it declined during the second Marinid period, and this was clearly demonstrated through many manifestations; Wars and strife come as one of the most prominent manifestations of corruption that led to the collapse of the internal trade movement, and the state's interference in commercial activity, and the imposition of many taxes on its workers, has harmed that activity, has harmed commercial activity and led to its deterioration, and led to the absence of the role of the muhtasib within the markets. Corruption spread in sales and transactions, and when the Marinid authority was unable to restore stability and security to the commercial roads and routes in the Far Morocco, the commercial convoys abandoned those routes in favor of other Maghreb countries, and commercial activity lacked advanced means of transport, whether related to land or sea transport, and incurred costs Commercial activity heavy losses as a result of the increased activities of pirates in the western basin of the Mediterranean, as the Jews had a major role in the decline and collapse of commercial activity.

Keywords:
decline - the second Marinid age - commercial activity - monopoly - taxes - markets - hotels - piracy - means of transportation.

مقدمة

تعد التجارة من أبرز الجوانب التي برزت فيها بوضوح مظاهر الضعف والتدهور خلال العصر المريني الثاني على الرغم من أنها حظيت خلال العصر المريني الأول باهتمام السلطة المرينية؛حيث أولى سلاطين الدولة المرينية الأوائل اهتمامًا خاصًا بالتجارة(١)،وذلك من خلال العديد من الإجراءات التي استهدفت تنشيطها، وإزالة ما يعترض سبيلها من معوقات(٢) ،وأدى كل ذلك إلى ازدهار حركة التجارة الداخلية والخارجية(٣)،وانعكس ذلك على المجتمع بالرخاء وعلى خزينة الدولة بالثراء(٤)، إلا أنّ هذه الصورة المشرقة للتجارة المرينية انقلبت رأساً على عقب خلال

(١) محمد القبلي: تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب،مطبعة عكاظ الجديدة،الرباط،ط ١، ٢٠١١م، ص١٣٢-١٣٦، ٢٣٤ .

(٢) أنظر:ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط ١، ١٩٧٢م،ص ٣٧٥؛ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا باخيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م،ص ٢٨٦، ٤٢٩، ٤٤٩؛ العقباني: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشريعة وتغيير المناكر، تحقيق على الشنوفي، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، دمشق، ١٩٦٧م، ص ٩٦؛ الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، نشر محمد حجي وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨١م، ج ٥، ص ٢٩٧؛ عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم،مطابع فضالة،المحمدية،المغرب، ١٩٨٨م، ج٧،ص ١٧٦.

(٣) ابن مرزوق:مصدر سابق،ص ٤٢٩؛الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، ط ٢، ١٩٨٧ م،ص ٢٩٢؛حمدي عبد المنعم: مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع،الإسكندرية،١٩٩٣م،ص ٦٣؛ خليل جليل بخيت القيسي: الانجازات الحضارية لدولة بني مرين في المغرب الأقصى للمدة من ٦٦٨هـ-٨٦٩هـ/١٢٦٩-١٤٦٥م) ، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد ١٩، العدد ٧٩ ، بغداد ،٢٠١٣م، ص٣٢٣ .

(٤) لمزيد من المعلومات عن ازدهار الحياة الاقتصادية في العصر المريني، أنظر:إبراهيم حركات:الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد ٣-٤،الرباط، ١٩٧٨،ص ١٢٩ – ١٤٢؛محمد فتحة: جوانب من الحياة الاقتصادية المغربية خلال العصر المريني، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، العدد ٢، عين الشق، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص ١٥٥ – ١٦٥؛ مزاحم علاوي الشاهري:النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، الدار العربية للموسوعات،بيروت، ط ١،٢٠١٤م، ص ٤٣ – ٥٢.

العصر المريني الثاني، وبرز ذلك بوضوح من خلال العديد من مظاهر الضعف التي أصابت النشاط التجاري وأدت إلى تدهوره ،ومنها:

أولاً- تعاقب الحروب والفتن:

أثرت الحروب والفتن التي انتشرت في المغرب الأقصى خلال العصر المريني الثاني، في تدهور النشاط التجاري(١)؛حيث قطع الثوار طرق التجارة عبر الصحراء واعترضوا القوافل التجارية، فانهارت حركة التجارة الداخلية تماماً(٢).كما أدت تلك الحروب والفتن، وما رافقها من ضروب الغصب والتعدي، إلى خوف التجار على أموالهم، وضعّفت آمالهم في السعي في الأرض والمتاجرة(٣)؛ ففي مثل هذه الظروف لا يمكن للتاجر أن يغامر بأمواله إلا إذا توفر عنصر الأمن؛ وعلى هذا الأساس، نستطيع التأكيد على أنه كلما طالت فترة الحروب والفتن تقلص النشاط التجاري وتراجع، وقد تفطّن ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، إلى هذه الثنائية التي تربط بين غياب الأمن وانتقاص التجارة ومن ثمة العمران كله(٤)؛ولعل أدل مثال

---

(١) عن دور الحروب والفتن والتقلبات السياسية في الحد من نمو التجارة المغربية خلال العصر الوسيط، وأثر ذلك على وضعية التجار وعلاقتهم بالسلطة. أنظر:خالد المنوبي:محاولة تشخيص التشكيلة الاجتماعية المغاربية قبل الاستعمار، تعريب محمد الأمين البزاز، عبد العزيز التلمساني خلوق، مجلة دار النيابة،عدد ١٣،السنة ١٩٨٧،٤م،ص ١٥؛عبد العزيز العلوي :البعد الاجتماعي للتجارة الصحراوية في العصر الوسيط، التجار المغاربة نموذجا، المصباحية،مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس،جامعة سيدي محمد بن عبد الله،سلسلة العلوم الإنسانية، العدد ١،المغرب، ١٩٩٥م، ص ٥٦؛

Kably (Mohamed): société,Pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age, XIVe –XVe siècles, Islam d'hier et d' aujourd'hui,Maisonneuve et Larose, Paris,198 .P. 226.

(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥م، ج ٢،ص ٦٨. مصطفى أبو ضيف: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٣م، ص ٢٢٦.

(٣) حميد تيتاو: الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية (سلسلة أبحاث)، الدار البيضاء، ٢٠٠٩م،ص ٢٦٦؛محمد محمد إسماعيل : ثورات العرب والبربر واليهود في المغرب الأقصى والأندلس في عهد دولة بني مرين (٦١٥-٨٩١هـ/١٢١٣-١٤٦٥م) ،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،ط ١، ٢٠٠٨م،ص ٣٢٣.

(٤) ذكر ابن خلدون أن " العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرون حينئذ أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها انقبضت أيديهم عن السعي

على حقيقة هذا الوضع، ما آلت إليه شركة المقري[١]، التي تعد ظاهرة فريدة في هذا العصر، من تراجع في رؤوس أموالها وفي نشاطها التجاري، فقد صادف أعضاؤها " توالي الفتن...فلم يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمن، فها أنا (أي المقري الحفيد) لم أدرك (من تجارتهم وأموالهم) إلا أثر نعمة اتخذنا فضوله عيشا"[٢].

كما أدت هذه الحروب إلى تقلص عمران العديد من المدن، التي كان لها من قبل شأن وأهمية من الناحية التجارية[٣]، مثل: أغمات[٤]، ومراكش[٥]، ومكناس[٦]، وسجلماسة[٧]، بل إن

في ذلك، فإذا قعد الناس عن المعاش، وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران،وانقبضت الأحوال ...". أنظر :ابن خلدون:المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت ،٢٠٠١م، ص ٢٢٣.

(١) تأسست شركة آل المقري التجارية بين خمسة أخوة هم: عبد الرحمن،أبوبكر ،محمد،عبد الواحد،وعلي،وهم من ذرية يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقري،الذين عقدوا شركة بينهم،وكانت جميع حصصهم فيها متساوية،وتحكمت في معظم عمليات التبادل التجاري بين المغرب الأوسط والسودان الغربي ،وحققت تلك الشركة نجاحا تجاريا كبيرا أدر عليها أموالا طائلة. أنظر:المقري:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨ م ، ج ٥، ص ٢٠٥، ٢٠٦؛ابن الخطيب:الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ٢٠٠١م، ج٢، ص١٩٣.

(٢) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨ م ،ج ٥،ص ٢٠٦.

(٣) الوزان : وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م،ج ٢،ص ٢٣٦ – ٢٣٧؛ مارمول كربخال: أفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط ١٩٨٩م ،ج ٢،ص ١٤٧ .

(٤) ابن الخطيب :مصدر سابق ،ج ٢،ص ٥٦ – ٥٨.

(٥) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م، ص٦٨٣ ؛الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج٤،ص ١٦.

(٦) ابن غازي : الروض الهتون في أخيار مكناسة الزيتون،تحقيق عطا أبو ريه،وسلطان بن مليح الأسمري، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧م،ص ١٠ – ١٢،٤٠ – ٤١.

(٧) حسن حافظي علوي : سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية،مطبعة فضالة،المحمدية، المغرب،١٩٩٧م،ص ٢٣٣.

بعض المدن خربت نهائيا وأفرغت من سكانها[١]، وهو ما توقف عنده الحسن الوزان المتوفى عام ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٢م، بتفصيل موضحاً خسائر هذه الحروب ومخلفاتها[٢]، وكل ذلك انعكس سلبياً على النشاط التجاري، وقلص من أسواقه ومجالات مبادلاته[٣].

وبالإضافة إلى ما سبق تسببت الحروب والفتن في بعض الآثار السلبية الأخرى التي أضرت النشاط التجاري، ومنها مثلاً تراجع أعداد ساكني الفنادق ونقصانه بصورة ملحوظة[٤].

ومجمل القول أن الاستقرار السياسي وتوافر عنصر الأمن شرطان أساسيان لحدوث الرواج التجاري، فلا يمكن لقطاع التجارة أن ينتعش إلا في ظروف الأمن والاستقرار[٥]، وكلما انتفى هذا الشرط، قلت أو انعدمت معه رغبة التجار في الذهاب إلى الأسواق البعيدة، وانحصر النشاط التجاري داخل أسوار المدن، أو توقف نهائيا أثناء الفتن والحروب [٦].

ثانياً- احتكار السلطة للتجارة:

شارك سلاطين الدولة المرينية في ميدان الإنتاج والتجارة؛ فقد احتكر المرينيون أرضاً شاسعة تمتد من مراكش إلى سوس، وحول العاصمة فاس، أطلقوا فيها ماشيتهم، وكانت توفر بدورها عائداً مهما، بفضل تسويق إنتاجها من الجبن، واللحوم، والدهون، والأصواف[٧].

ويمكننا أيضاً أن نتلمس الطابع الاحتكاري للسلطة المرينية في التجارة المتوسطية؛ بفضل المعاهدات والشركات كانت تربطهم ببعض التجار المسيحيين[١]؛فقد كانت السلطة تشرف مباشرة

---

(١) الوزان : مصدر سابق،ج ١،ص ٢١٠ – ٢١١ ،٢١٣ – ٢١٧ ،٢٩٢ ،٣٠١ – ٣٠٢ ،٣٤٩ – ٣٥٠.

(٢) المصدر السابق،ج ١،ص ٢١٥.

(٣) حميد تيتاو :مرجع سابق،ص ٢٦٦.

(٤) الونشريسي: مصدر سابق، ج ٨، ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

(٥) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م، ج ٣،ص ٧٤؛ أحمد عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢٦٣محمد فتحة: مرجع سابق،ص ١٦٣.

(٦) راجع :ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م،ج ٧، ص٢١٠– ٢١١، ٢١٣ – ٢١٧، ٢٩٢، ٣٠١ – ٣٠٢ ،٤٢١ – ٤٢٢، ٤٢٦ – ٤٧٢؛الوزان: مصدر سابق ،ج١،ص ٤١٥ ،٤١٦، ٤١٨ – ٤٣٣، ٤٤٧ – ٤٨٤؛الناصري:مرجع سابق، ج٤، ص ٣، ٤ – ٧، ٦٨.

(٧) ابن الخطيب: مصدر سابق ، ج٢، ص ٣٠٩ ؛ ابن خلدون:مصدر سابق ، ج ٧، ص ١٥٠، ٣٤٥– ٣٤٦.

على تصدير مادة الحبوب والجلود باعتبارهما أهم المواد التي ظلت طيلة العصر الإسلامي تشكل ثوابت في صادرات المغرب(٢)،ومن المعلوم أن التجارة المتوسطية بالرغم من أهمية الموارد التي كانت توفرها عن طريق الضرائب الجمركية، كانت تهم فئة محصورة من المجتمع، ونعني بذلك السلطة المرينية والتجار الأجانب،بينما كانت التجارة القافلية تهم المجتمع برمته(٣).وهذا يعني مزاحمة السلطة المرينية للتجار في نشاطهم ،واحتكارها لمجمل أرباحه، ويعد هذا من أشد صور الفساد على الصعيد الاقتصادي.

وفضلاً عن هذا انطوت ممارسة السلطة المرينية للنشاط التجاري على مفاسد أخرى، أهمها عدم التزامها خلال العصر المريني الثاني بالأسس التي أقرها الفقهاء في شأن التجارة مع

---

(1) Dufourcq: « Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane : données connues et problèmes en suspens », dans Actes du premier Congrès d'histoire et de civilisation du Maghreb Tunis, CERES, coll. « Cahiers du CERES. Série histoire » (1),(Tunis, 1979),vol. 1,PP.161-187.

(٢) مصطفى نشاط:ملاحظات حول المعاهدات التجارية المغربية في العصر المريني الأول،أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب – كلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق ، جامعة الحسن الثاني ،الدار البيضاء، المغرب،١٩٨٩م، ج ٢،ص ١٦٠ ؛

Pegolotti (Francesco Balducci):La Pratica,della mercatura,edited by allan Evans, [The Mediaeval Academy of America, Publication No. 24] ,Cambridge,Massachusetts, 1936, P.273 - 277.

(٣) بالنظر في نوعية السلع المتبادلة بين المغرب وأوروبا – من المعاهدات – يتبين أن " ميزان المبادلات " كان يميل لصالح الأوربيين بفعل شرائهم في الغالب لمواد خام من المغرب وبيعهم له موادًا مصنعة مثلا الأسلحة والأنسجة الصوفية والزجاجيات.أنظر:مصطفى نشاط: مرجع سابق ، ج ٢،ص ١٦٢ ؛المغرب المريني وأزمة القرن ٨هـ/١٤م النقدية ،مجلة أمل ،مطبعة النجاح الجديدة،السنة الأولى ، العدد ٣،الدار البيضاء، ١٩٩٣م،ص ١٠ ؛ ؛أحمد عزاوي: علاقات السلم والتجارة بين الغرب الإسلامي وأوروبا المتوسطية من خلال رسائل ديوانية (القرون ٦-٨هـ/١٢-١٤م)،مجلة الآداب والعلوم الإنسانية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل بالقنيطرة،العدد ١، المغرب،١٩٩٧م، ص ٩-١٩ ؛ماجدة كريمي:الأبعاد الاجتماعية للتبادل التجاري بين المغرب الوسيطي ودول جنوب غرب أوربا بالمدينة المغربية ملاحظات واستنتاجات ، ضمن ندوة : دور مضيق جبل طارق في علاقات المغرب الدولية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان ، المغرب، ٢٠٠١م، ص ٧١ – ٨٢ .

أعداء الدين ،ومن أهمها عدم تصدير المواد التي يستخدمونها في التسليح؛ الأمر الذي أثار غضب التجار المحليين ورجال الدين بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني الثاني(١).

كما كانت الدولة تستغل سلطتها في فرض الأثمان التي ترتضيها لسلعها ، فهي تشتري المواد الفلاحية والتجارية بأبخس الأثمان وتبيعها بأغلالها دون مراعاة لوضعية السوق، وتوازنه، والنتيجة الطبيعية لذلك هي اختلال الأسواق، وإتلاف أحوال الرعية، بل واختلال الدولة نفسها فقيام السلطان بالتجارة والفلاحة مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص في العمارة(٢).

وهكذا أثّر تدخل الدولة المرينية في المجال التجاري سلبا على مجمل هذا المجال والعاملين فيه وأضر بالدولة نفسها؛ حيث أن وفرة رؤوس أموال الدولة وقوتها يجعلها تنافس بذلك الخواص وتقوم باحتكار السوق والتغلب عليه مما ينتج عنه إفلاس بقية التجار(٣)؛ حيث لم يكن التجار خلال فترة الدراسة يشكلون قوة مستقلة موازية للقوة الحاكمة، بل كانوا في الغالب إما مجرد عملاء للسلطان الذي كان التاجر الأكبر أو شيوخ قبائل متحالفين مع الأسرة الحاكمة ومن ثم فإن عائدات التجارة كانت بشكل أو بآخر جزءًا من أموال السلطان(٤).

ثالثاً- فرض الضرائب المجحفة على التجار:

فرضت السلطة المرينية العديد من الضرائب، والمكوس، على التجار(٥)،بصفة خاصة، وازداد هذا الأمر خلال العصر المريني الثاني، فأرهقوا كاهلهم بها(٦)؛حيث خصّصت الدولة المرينية جهازاً تفتيشيا من العمال، على أبواب المدن ليتولى مراقبة البضائع ،وفحص العابرين

(١) إبراهيم بو طالب: بعض مظاهر التجارة الخارجية بالمغرب قبل ١٩٥٦م وأسسها الشرعية، ضمن ندوة التجارة في علاقاتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب ٢١ ـ ٢٣ فبراير ١٩٨٩، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ١٩٨٩م ، ج ٢، ص ١٧٨- ١٨٠.

(٢) ابن خلدون: مصدر سابق، ص ٣٤٧ ، ٣٤٩ .

(٣) المصدر السابق، ص ٣٤٧ .

(٤) محمد عابد الجابري: العصبية و الدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦، ١٩٩٤م، ص ٣٢ .

(٥) للمزيد حول التجار المغاربة خلال العصر الإسلامي،أنظر: محمد ابن ساعو: التجار المغاربة في العصور الوسطى من خلال المصادر الفقهية، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد ٢، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٤م، ص ٢٣ – ٢٨ .

(٦) ابن خلدون:مصدر سابق،ص ٢١٣؛عطا علي محمد ريه: اليهود في المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ١٩٩٩م،ص ١٣٦؛هالة عبد الرازق: أسواق فاس في العصر المريني ،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،٢٠١٣م،ص ١٩١ – ١٩٣.

من التجار لتحديد ما يقع عليهم من ضرائب[١] ،عُرفت باسم " مكس الباب "[٢]؛حيث كان يجلس على كل باب من أبواب المدينة حراسٌ وكُتابٌ يتقاضون المكوس حتى على السلع قليلة الأهمية[٣]. وهذه الرسوم أسهل الضرائب من حيث الجباية؛ لأن المدينة محاطة بأسوار عالية ولا يدخلها التجار إلا عن طريق الأبواب حيث يجبى منها الضرائب المفروضة عليهم[٤].

كما فرضت ضرائب أخرى على التجار والباعة بالأسواق عرفت باسم القِبالات[٥]، والتي أصبحت من الموارد الرئيسية لخزائن الدول في تلك الفترة [٦]، وشددت الدولة المرينية في جباية

(١) مزاحم علاوي: النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، الدار العربية للموسوعات،بيروت، ط ١ ،٢٠١٤م،ص ١٨٩ – ١٩٠.

(٢) الونشريسي: مصدر سابق ، ج ٦،ص ١٥٢.

(٣) الوزان: مصدر سابق ، ج ٢،ص ٢٥١.

(٤) هوبكنز :النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار المصرية للكتاب ،ليبيا وتونس، ١٩٨٠م، ص ٩٢.

(٥) القبالات:هي في الأصل الضريبة التي تدفع لبيت المال ،ولقد أطلق هذا اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقضي به الشرع،وهى ضريبة تفرض على المبيعات في الأسواق، يؤديها التجار وبائعوا السلع الرئيسية.أنظر: ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ،تحقيق:محمود علي مكي،دار الغرب الإسلامي، بيروت ،لبنان ،١٩٨٩م ،حاشية (٤)،ص ١٩٣. للمزيد أنظر:محمد عمارة :قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية،دار الشروق،القاهرة – بيروت، ط ١، ١٩٩٣م،ص ٤٤٥ ؛صالح بن قربة :المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حمّاد،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،قسم علم المكتبات والتوثيق،مخبر المخطوطات،جامعة الجزائر، الجزائر،٢٠٠٥م،ص ١٩١ ؛ إبراهيم القادري بوتشيش : أثر الحروب في المجال الضرائبي، مجلة الاجتهاد، العددان الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون، السنة التاسعة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م،ص ٨٧؛صلاح أحمد عيد خليفة:القبالات في المغرب والأندلس ق ٣ –٦هـ/ ٦–١٢م وأصولها التشريعية وتداعياتها التاريخية،مجلة المؤرخ العربي، المجلد ١،العدد ٨ ،٢٠٠٠م، ص ٥٥٣،٥٢٥.

(٦) هوبكنز:مرجع سابق،ص ٩٥ ؛صالح فياض أبو دياك: النظام المالي عند الحفصيين، مجلة الدراسات الإسلامية، جامعة دمشق،لجنة كتابة تاريخ العرب، العدد ٢١ –٢٢،السنة ٧، ،دمشق، ١٩٨٦م، ص ٩٤؛فرانشيسكو بيدال كاسترو:روائع أندلسية إسلامية، ترجمة صبري محمد زيدان، المجلس الأعلى للثقافة، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، ٢٠٠٤م، ص ١٩٩.

القبالة واعتمدت على الجباة المتقبلين الذين أساءوا للناس في جبايتها[١]؛ ففرضوا الضرائب والمغارم والمكوس بلا رحمة[٢]، وكانوا لا يتركون شيئاً يباع صغيراً ،أو كبيراً ،إلا أخذوا عليه قبالة ،حتى وصلوا إلى بيوت الفقراء وفرضوا عليهم القبالات[٣].

وانتشرت ضريبة أخرى عُرفت باسم حقوق الأرض، وهى تفرض على الأماكن التي تشغلها بضائع التجار حين تطرح للبيع بالأسواق أو على دكاكينهم في الأسواق[٤].وكانت مدينة فاس تجني مبالغ طائلة من هذه الضرائب، بلغ مقدارها مائة وخمسين ألف دينار[٥].

ولم تقف معاناة التجار إزاء تلك الضرائب المجحفة عند الحدا الذي فرضته السلطة المرينية فقط؛ بل إنه نتيجة لتقاعس المرينيين وضعفهم خلال العصر المريني الثاني، قامت بعض القبائل العربية بفرض الرسوم على السلع المارة بأراضي المغرب الأقصى، واعترضوا طريق القوافل التجارية، واستولوا على ما فيها إذا لم يدفعوا الإتاوة المفروضة عليها ،وخاصة في الأماكن التي لا تمتد فيها سلطة الدولة المرينية [٦]،ومن أمثلة تلك القبائل: قبائل عرب الشاوية ، وقبائل عرب ذوي حسان ،وقبائل عرب ذوي منصور[١].

---

(١) ابن عبدون:رسالة في القضاء و الحسبة ، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، سنة ١٩٥٥م ،ص ٣١، ٣٢؛ الونشريسي: مصدر سابق، ج ٣،ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ٢٠٠١م، ج ٢،ص ١٢٥.

(٣) صلاح أحمد عيد خليفة: مرجع سابق ، ص ٥٢٥، ٥٤١.

(٤) ابن خلدون:مصدر سابق،ص ٢٥ ؛ هالة عبد الرازق: مرجع سابق،ص ١٦٦؛صلاح أحمد عيد خليفة:مرجع سابق ،ص ٥٤٢.

(٥) ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٦م ، ص ٨٢.

(٦) عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي:شرح العمل الفاسي، مخطوطة الخزانة العامة، الرباط،رقم ١٤٤٧د (ضمن مجموع)، ورقة ٧٨؛ابن الخطيب :نفاضة الجراب ،ج٢، ٣٢٤؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م،ج ٦،ص ٩٢؛الونشريسي: مصدر سابق ،ج ٢،ص ٤٠٣ – ٤٠٤؛الوزان: مصدر سابق،ج ١،ص ٢٠٥؛المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين،منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، الطبعة الثانية ١٩٩٦م،ص ٩٢؛ مصطفى أبو ضيف:مرجع سابق ،ص ٢٧٧؛ إبراهيم

ومن البديهي أن يعاني التجار من جراء ذلك[٢]، وانعكست هذه المعاناة على تراجع دخل التجار وأرباح بضائعهم، بسبب ضعف القدرة الشرائية للسكان[٣]،وزيادة نفقاتهم؛مما أدى إلى إفلاس العديد من التجار وخاصة الصغار منهم، وتحول بعضهم إلى باعة للأثاث والملابس المستعملة[٤]، بينما التحق البعض الآخر بصفوف العاطلين[٥]،ونستدل على ذلك بقول الوزان " تجار تلمسان وأهلها ذوو هندام جيد وأحياناً أفضل من أهل فاس"[٦].

وينبغي أن نشير إلى أن الضرائب المُجحفة، التي فرضها الوزير اليهودي هارون على التجار المغاربة، كانت سببًا في الثورة التي شهدها المغرب الأقصى سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٥م والتي راح ضحيتها آخر سلاطين بني مرين، عبد الحق بن سعيد، ومعه الدولة المرينية كلها[٧]، حيث أكدّ أحد الباحثين أنّ أهم أسباب هذه الثورة، كانت " جبائية اقتصادية بالدرجة الأولى "[٨] .

حركات:مدخل إلى التاريخ الاجتماعي والعسكري لعهد بني مرين،مجلة البحث العلمي، مجلد ١٤،العدد ٢٧،المعهد الجامعي للبحث العلمي،جامعة محمد الخامس، المغرب، ١٩٧٧م،ص ٢١٤.

(١) أنظر:ابن خلدون: مصدر سابق،ج ٧،ص٧٥٠؛الوزان: مصدر سابق ،ج ١،ص ٦٣، ٦٤، ٢٠٥ ؛الناصري:مرجع سابق؛ج ١،ص٢٩٨؛ج٤،ص ٩٦؛عبد القادر جغلول:مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط،ترجمة فضيلة الحكيم، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٨٢؛ مصطفى أبو ضيف:مرجع سابق،ص ٢٢٦، ٢٧٧؛ ؛ هوبكنز :مرجع سابق،ص ١١١.

(٢) البُرْزُلِي: فتاوى البُرْزُلِي " جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام "،تحقيق محمد الحبيب الهيلة،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م، ج ٥ ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.

(٣) محمد ياسر الهلالي: أثر القحوط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط، ضمن ندوة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب،جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،الجديدة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، سلسلة ندوات ومناظرات، العدد ٤، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م،ص ١٩٢ ؛

Rosenberger (Bernard) and Triki (Hamid):Famines et épidémies au Maroc aux XVIè et XVIIè siècles , in: Hespéris, T.XIV, 1973,pp. 75 - 109.

(٤) Biraben (Jean-Noël):La peste noire en terre d'Islam , L'histoire, n° 11,1979,p. 38.

(٥) محمد ياسر الهلالي:مرجع سابق ،ص ٢٠٠.

(٦) وصف إفريقيا،ص ٣٩٢.

(٧) الناصري: مرجع سابق ج ٢،ص ١٦٨ ؛إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة ،الدار البيضاء، ٢٠٠٠م،ج ٢،ص ٧٦ .

(٨) محمد القبلي: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر،ط ١،الدار البيضاء، ١٩٨٧م،ص ٦٣ .

رابعاً ــ انتشار الغش والفساد في الأسواق والفنادق:

تدهورت أحوال الأسواق خلال العصر المريني الثاني تدهوراً ملحوظاً؛ بسبب غياب دور المحتسب داخل الأسواق، إذ لم يعد هناك رقيب عليها(١)؛ فانتشر في الأسواق اختلاط النساء بالتجار والسماسرة، فيدخلن معهم في الحديث والمزاح غير المشروع، كتبادل كلمات الغزل والنظرات الآثمة، مما يعد مخالفا للدين والأخلاق(٢).

وعمّ الفساد في البيوع والتجارات والتعاملات(٣)؛ وانتشر التعامل بالربا(٤)؛ فكثرت المشاكل بين الناس والبائعين(٥)، وتزايد غش التجار في بضائعهم وسلعهم(٦)؛ حيث كان بعض التجار يبيعون سلعًا (معيوبة) ،ولا يعرف المبتاع عيب السلعة إلا بعد شراءها(٧)، كما عرف التجار شراء

---

(١) الونشريسي: مصدر سابق،ج ٨،ص ٣١٨؛الحسن السائح :على هامش تاريخ القرويين،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ج١،ص ١٠٢ ،١١٠ -١١١. للمزيد حول الأسواق وأنواعها في المغرب الأقصى خلال العصر المريني،والجذور التاريخية لنشأة نظام الحسبة والرقابة على الأسواق في بلاد المغرب أنظر:كريم عاتي الخزاعي:أسواق بلاد المغرب من القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري،الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١، ٢٠١١م، ص ٢٥ وما بعدها، ص ١٩٨ وما بعدها.

(٢)الونشريسي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٠٥؛ ج ٥، ص ١٩٩ ؛ربيعة قسيمي : عادات المرأة المغربية المنهي عنها من خلال نوازل المعيار للونشريسي، مجلة عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي ،تاريخ الجزائر-جامعة وهران، العدد ٢٦ - ٢٧ ،الجزائر ،٢٠١٥م .
،ص ٢٢٨ .

(٣) الونشريسي : مصدر سابق ،ج ٥،ص ٢٠٢،ج ٦،ص ٦٠ ،٧٥ ؛ ج ٨،ص ٤٤٧؛ج ١٢،ص ٣٧٦ ؛ابن يوسف : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ، تحقيق حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ٦، العدد ١، ٢، أسبانيا، ١٩٥٨م،ص ١١٥، ١٣٩ ؛ابن عبد الرؤوف : آداب الحسبة والمحتسب،ضمن الرسائل الأندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٥٥م،ص ٨٥؛مارمول كربخال :مصدر سابق،ج ٢،ص ٣٠٠؛إبراهيم حركات : النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط ،منشورات إفريقيا الشرق، ١٩٩٦م، ص ١٤٧.

(٤) الونشريسي : مصدر سابق ،ج ٢،ص ٥٠١.

(٥) الحسن السائح : مرجع سابق، ج١، ص ١٠٢ - ١٠٣؛محمد أحمد إسماعيل :مرجع سابق ،ص ٣٢٦.

(٦) السقطي : آداب الحسبة ، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة إرنست لورو ، باريس ، ١٩٣١م،ص ٦٥ - ٧٠؛الحسن السائح :مرجع سابق،ص ١٠٣.

(٧) الونشريسي : مصدر سابق ،ج ٥،ص ٢٠٤.

الثمار وبيعها قبل اكتمال نضجها والتأكد من جودتها[١]،لذلك ورد في بعض نوازل تلك الفترة أن بعض التجار خونة سارقون[٢].

كما طال الغش الأوزان والمكاييل[٣]؛ حيث عرفت أسواق المغرب العديد من حالات التطفيف في الميزان[٤] والغش فيه[٥]،والكيل الفاسد ،والبيع بالمكيال المجهول[٦]؛ فانتشر بيع الجزاف[٧]؛ حيث كان من عادة أهل القرى في الأسواق إذا كالوا يهزون الصاع[٨] عند الكيل

---

(١)ابن رشد الحفيد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد، المكتب الثقافي السعودي بالمغرب، الرباط، ١٩٩٧ م ،ج ٢،ص ١٧٧؛ الونشريسي : مصدر سابق ،ج ٥،ص ٩٠، ٢٣٨.

(٢) الونشريسي: مصدر سابق ،ج ٨،ص ٣٤٦.

(٣) للمزيد عن الأوزان و المكاييل خلال العصر المريني،أنظر:مجهول: تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك، مخطوط،الخزانة العامة بالرباط، رقم ٤١٦ ق، ص ٤٣٤، ٤٤٩؛هنتس:المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي،الجامعة الأردنية،ط ١،عمّان،١٩٧٠م،ص ٢٧، ٦٤ ؛محمد الشريف: تقييد جديد حول النقود والأوزان والمكاييل المغربية في القرن السابع الهجري، مجلة التاريخ العربي، العدد ١١، كلية الآداب ، تطوان، ١٩٩٩م،ص ١١١– ١٣١.

(٤) الونشريسي: مصدر سابق ،ج ٥،ص ٢٥٣؛ج ٦،ص ٤١٢ – ٤٢٤؛عبد الرحمن الفاسي:خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين،دار الثقافة،الدار البيضاء، ١٩٨٤م، ص ٨٩؛المنوني: مرجع سابق،ص ١٣٨ ،١٣٩؛محمد فتحة : النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي من القرن٦ إلى ٩هـ/١٢ ـ ١٥م) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٩م ،ص ٧٦؛عبد العزيز بن عبد الله :تطوان عاصمة الشمال ومنبع إشعاعه، جمعية تطاوين أسمير، تطوان، ٢٠٠٦م، ص ١١٥.

(٥) يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ، مطبعة بيير فونطانا الشرقية،الجزائر، ١٩٠٣م، ص ٩٠ ؛ الونشريسي: مصدر سابق، ج ٢، ص ٧٣ – ٧٤ ؛ ج ٤، ص ٣٩٠ .

(٦) الونشريسي: مصدر سابق، ج ٥، ص ١٠٦ – ١١٠ .

(٧) بيع الجزاف :هو البيع بالنظر وبالتقريب والتخمين وليس بالوزن والمكيال.أنظر : ابن رشد الحفيد :مصدر سابق،ج ٢،ص ١٧٤–١٧٥؛ الونشريسي: مصدر سابق، ج ٥، ص ٩١ ، ١٩١؛ محمد بن علي الشوكاني:نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار،تحقيق محمد صبحي بن حسن حلاق، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣م، ج ٥، ص ١٦٠؛أحمد الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي،دار الجيل، بيروت، ١٩٨١، ص ٩٧.

(٨) الصاع هو مكيال تكال به الحبوب ونحوها وقدره أهل الحجاز قديما بأربعة أمداد أي بما يساوي عشرين ومائة وألف درهم وقدره أهل العراق قديما بثمانية أرطال، والجمع أَصْوُع وصوعان وصيعان.أنظر:

ويجرونه بأيديهم رغم اعتراض الفقهاء على ذلك[١]واعتاد أهل القري البعيدة على شراء المنتجات جزافا دون وزن؛ وذلك لحاجتهم واستغلال البائعين[٢]؛فقد كان الجزارون يبيعون اللحم في البادية ،وفي كثير من الأحيان كانوا لا يستطيعون التخمين في البيع مما قد يوقعهم في الفساد[٣]،ولكثرة الغش في الميزان بالمدن كان الريفيون في الغالب يأتون إلى فاس بميزان متنقل يحمل على السبابة وعلامات في قبضة اليد تشير للوزن التقريبي[٤].ونتيجة لكثرة الغش في الأوزان والمكاييل، أفتي الفقهاء بأن يخرج من السوق من يغش في المكيال[٥].

كما أُغرقت الأسواق خلال العصر المريني الثاني بالعملة الفاسدة؛ حيث تعامل المخنثون في الأسواق بنقود فاسدة[٦]،وكذلك عمل الصبيان بسك العملة[٧]الفاسدة ،وأسهموا في تداولها[٨]؛فانتشر بفاس خلط الدنانير الذهبية الطيبة بالدنانير المزيفة الرديئة[٩]،ولذلك صارت النقود الذهبية في الدولة المرينية قليلة[١٠]،وترتب على فساد العملة غلاء الأسعار[١]، وكثرة

الشرباصي: مرجع سابق، ص٢٥٩، المعجم الوسيط، تأليف نخبة من أساتذة اللغة العربية، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية،القاهرة،٢٠٠٤م،ج١، ص٥٢٨.

(١) الونشريسي :مصدر سابق ،ج ٨، ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٥، ص ٨٨ ، ٩٨ .

(٣) المصدر السابق ،نفس الجزء،ص ٨٨، ٨٩ ،٩٦ ،٩٨. والأدهى من ذلك أن الجزارين البعيدين عن غصب المواشي (سرقتها) لم يروا عيباً في الشراء من الغاصب،وهكذا لم يعد أمام الناس سوى شراء اللحوم من الجزارين الذين يبيعون الجزاف أو الشراء من فقراء الجزارين أصحاب المواشي التي يغلب عليها الغصب والحرام أيضاً. الونشريسي: مصدر سابق ،ج ٩،ص ٥٥٨.

(٤) روجية لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ترجمة نيقولا زيادة، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٦٧م ،ج ١،ص ٤٠٩.

(٥) الونشريسي:مصدر سابق ، ج ٦، ص ٤١٢ .

(٦) المصدر السابق ،ج ٨،ص ٤١١،ص ٤٤٦.

(٧) للمزيد حول حرفة سك النقود خلال العصر المريني،أنظر:الموساوي العجلاوي: حرف السك النقدي في العهدين المريني والسعدي، مجلة أمل، مج ٣. العدد ٧، المغرب، ١٩٩٦م، ص ٢٢ – ٣٤ .

(٨) الونشريسي :مصدر سابق،ج ٨،ص ٢٥٨.

(٩) يوسف بن الحكيم: مصدر سابق ،ص ١١٥؛مارمول كربخال : مصدر سابق،ج ٢،ص ٣٠٠ ؛ابن عبد الرؤوف : مصدر سابق ،ص ٨٥.

(١٠) محمد المنوني :ورقات عن حضارة المرينيين،ص ١٣٠؛نظم الدولة المرينية،مجلة البحث العلمي،عدد ٤، ٥، السنة ٢،عام ١٩٦٥م،ص ٢٤٣.

النزاعات بين الباعة والمشترين[٢]؛الأمر الذي دفع كثيرًا من الفقهاء بوقف التعامل بها[٣]،إذ وجد هؤلاء الفقهاء أن البلاد في عدم استقرار اقتصادي وفي سبيلها نحو الفناء[٤].

وبالرغم من تبوأ الدلال والسمسار[٥] مكانة مهمة في تنشيط دورة المبادلات التجارية والصفقات[٦] ،إلا أنهما مارسوا الكثير من أشكال الغش والتدليس؛ فبالنسبة للدلالين فقد تملص بعضهم من أداء مغارم السوق،بقصد اقتسامها مع التاجر وبائع السلعة[٧]،أو الاستمرار في المزايدة حتى إن قبل البائع ثمناً أدنى[٨]؛ لذلك لم تحظ حرفة الدلال لدى الجمهور بالاحترام

---

(١) العقباني: تحفة الناظر، ص ٢٣٦ .

(٢) الونشريسي: مصدر سابق ، ج ٥، ص ١٤ – ١٦ .

(٣) يوسف بن الحكيم:مصدر سابق ،ص ٧٣؛الونشريسي مصدر سابق ،ج ٦،ص ٧٤ – ٧٥.

(٤) العقباني: مصدر سابق ،ص ٣٤٦؛الونشريسي :مصدر سابق ،ج ٩،ص ٣٧٢؛ج ١٠،ص ٣٢٨. يبدو أن مشكلة تزييف العملة كانت مستفحلة ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط حتى لا يكاد يخلو كتاب من كتب النوازل من قضايا مرتبطة بهذه الآفة، بل تخصص بعض الفقهاء في الإشكالية عينها فألفوا فيها كتباً ضمّنوها مختلف المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي كانت العملات المزيفة سبباً فيها. أنظر على سبيل المثال: أبو العباس عبد العزيز الهلالي: المراهم في أحكام فساد الدراهم، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم : د ١٠٨١ ضمن مجموع ؛ مختار القيرواني: مسائل الأمر الأهم في المعاملة بالدرهم، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم : د ٢٧٣٧ .

(٥) الدلال:يُعرّف القادمين من التجار بموضع السلع في البلد ،ويُعرّف أرباب السلع بالتجار فسُمى بذلك دلالاً، أما السمسار:هو الحاذق بالبيع والشراء فيبيع لمن أراد البيع ويشتري لمن أراد الشراء. المعداني :كشف القناع، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم ١٠٧٩ د، ورقة ٤٣ ب (شريط).

(٦) الونشريسي:مصدر سابق ، ج ٨، ص ٣٥٥ – ٣٦٤. الوزان: مصدر سابق،ص ٢٣٧، ٢٣٩؛ عز الدين موسى : مرجع سابق، ص ٢٨٤ ؛

Brunschvig (Robert):La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siècle, Paris,Vol2,1982,P.245.

Bousquet (G.-H.) & Berque (J.): "La criée publique à Fès. Etude concrète d'un marché", in Revue d'économie politique 3, Paris,1940,P.330.

(٧) ابن رشد: نوازل ابن رشد الكبير، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ك٧٣١ ، ص١٠٨، ١١٥ .
الونشريسي :مصدر سابق ،ج ٥،ص ٣٢.

(٨) ابن مرزوق:أجوبة الفقهاء في نوازل من أبواب الفقه، مخطوط الخزانة العامة، الرباط،رقم ١٣٤ د، ورقة ١٢١؛الونشريسي:مصدر سابق، ج ٥، ص ٢٢٠؛الشاطبي: فتاوى الإمام الشاطبي،تحقيق محمد أبو الأجفان ،تونس، ط ٢، ١٩٨٥م،ص ١٤٣.

الكافي،فعدالتهم مشكوك فيها،ويشتبه في استغراق ذممهم[١]،واعتبر بعض الفقهاء السماسرة أكثر غشا بالقول من أصحاب السلع، وذلك أنهم يزينون البضاعة في عين المشتري مع درايتهم بعيوبها[٢]، وكذلك قيام بعضهم ببيع البضاعة إلى مشترٍ آخر لأنه زاد في سعر البضاعة التي كانت من حق غيره[٣].

وشهدت الأسواق العديد من النزاعات خاصة بين الجلاسين[٤] والملاكين الحقيقيين للأصل، الذين يجبرونهم على الزيادة في الكراء أو إخلاء الحوانيت[٥].

وكانت الفنادق خلال العصر المريني الأول بمثابة بورصة تجارية للتجار تشتعل نشاطاً وحركة[٦]،إلا أنها تحولت مع الكساد الاقتصادي الذي أصاب المدن المغربية خلال العصر المريني الثاني، إلى أماكن للخلاعة وارتكاب المعاصي[٧]،حتى أنهم استفتوا عن حكم " الفنادق

---

(١) الونشريسي: مصدر سابق ، ج ١٢، ص ٦٣.

(٢) ابن الحاج: المدخل،مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت،ج ٣، ص ٣٥.

(٣) ابن رشد: نوازل ابن رشد الكبير،مخطوط،ص ١٠٣؛ الونشريسي:مصدر سابق ،ج ٥،ص ٣٨؛روجيه لوتورنو:مرجع سابق ،ص ١٥٦.

(٤) الجلاسون:هم الوسطاء بين الدلال والتاجر، فينزل التجار الغرباء عندهم في حوانيتهم، وكلما جاء أحد يشتري البضائع، زاد الجلاس عليه حتى يبلغ السعر الذي حدده الدلال أو أكثر منه، وتقاسما فرق الأسعار. أنظر: حوالة الأحباس الكبرى، رقم ٥، الخزانة العامة، الرباط، تحت رقم ٢٣ ؛ السقطي: مصدر سابق ،ص ٥٩؛ابن عبد الرؤوف: مصدر سابق ،ص ٨٥. الونشريسي:مصدر سابق ، ج ١٢،ص ٦٣ – ٦٤ .

(٥) أحمد بن الحاج العباس الشرايبي:الرماح في باب تملك الحوانيت التي للحبس بالبيع والشراء، مخطوط الخزانة العامة، الرباط،،رقم ١١١٣،ورقة ٥٨ ب (شريط)؛عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي:شرح العمل الفاسي، مخطوط ، ورقة ١٤،١١،١٠.

(٦) الوزان : مصدر سابق ،ج ١،ص ٢٧٢ . ٢٧٣ ؛نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة ،١٩٧٢م،ص ٢٩١. ويزداد تواجد مثل هذه الفنادق والخانات بمدن المغرب الساحلية. أنظر :

Mas Latrie (Louis) : Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen-âge / recueillis par ordre de l'empereur et publiés avec une introduction historique,Bibliothèque nationale de France , Paris ,1866, P190.

(٧) الوزان : مصدر سابق ،ص٢٣١–٢٣٢، ٢٣٦ –٢٣٧ ؛ مارمول كربخال :مرجع سابق،ج ٢،ص ١٤٧ – ١٤٨ ؛إبراهيم حركات:الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد ٣–٤،الرباط، ١٩٧٨،ص ١٣٤.

إذا قل واردها لسكناها...والحوانيت المُكتراه إذا قلت التجارة لضعف الناس، هل هذا يعد جائحة يحط من كرائها "[١].وهذا يعني أن نشاط بعض تلك الفنادق تحول إلى الخلاعة والمجون خلال فترة تدهور النشاط التجاري.

وهكذا انتشرت مظاهر الفساد في الأسواق خلال العصر المريني؛نتيجة تدهور أحوال السلطة المرينية،وغياب الدور الرقابي للمحتسب؛ فضلا عن تدهور أحوال الفنادق ،وتحول بعضها من وظيفتها الاقتصادية،إلى أماكن للخلاعة وارتكاب المعاصي.

خامساً ــ تدهور الأمن وتحول طرق التجارة العابرة للصحراء:

كان التحكم في محاور طرق القوافل التجارية[٢]،بمثابة العمود الفقري لكل سياسة اقتصادية ببلاد المغرب[٣]؛إلا أن الدولة المرينية لم تستطع تحقيق هذا الأمر خلال العصر المريني الثاني؛حيث ازدادت اعتداءات قطاع الطرق، واللصوص على الناس، وعلى ممتلكاتهم، وبضائعهم في الطرق والمسالك التجارية[٤]،وهو ما تبرزه بوضوح المادة النوازلية خلال تلك الفترة[٥]،وكان للعناصر البدوية المهمشة (الأعراب) دورها الأكبر في ذلك[١]؛ففي عام

---

(١) ابن رشد:فتاوى ابن رشد ، ج٣،ص ١٢٨٢ – ١٢٨٣؛عبد الهادي البياض: أثر الكوارث الطبيعية في المجال الاقتصادي بالمغرب والأندلس،كتاب المجلة العربية ٢٠٠ ، الرياض، ٢٠١٢م،ص ١٠١.

(٢) حول تجارة القوافل العابرة للصحراء ،أنظر:خالد بلعربي:تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط،مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد ١٥،جامعة غرداية، الجزائر،٢٠١١م، ص ٣٥ – ٤٠ .و حول مختلف المراحل التي مرت منها هذه الطرق حتى منتصف القرن الثاني عشر ،أنظر:

Lombar (Maurice):L'Islam dans sa première grandeur (VIIIe- XIe siècle) ,Flammarion , Paris,1971.p.71-74.

Planhol (Xavier):Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam. Paris, Flammarion, 1968.P.140-151.

Godinho (Vitorino Magalhaes):L'Economie de l'empire portugais aux XVe et XVIe siècles ,Edité par S.E.V.P.E.N, Paris,1969.P. 116 – 117 et 122 - 123.

Vanacker Claudette:Géographie économique de l'Afrique du Nord selon les auteurs arabes du IXe siècle au milieu du XIIe siècle. In: Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 28e année, N. 3, 1973. pp. 659-680.

(٣) القبلي: مراجعات، ص ٥٩ .

(٤) الونشريسي:أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، تحقيق حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مج ٥،العدد ١–٢،مدريد،١٩٥٧م،ص ١٤٤.

(٥) الونشريسي: المعيار، جـ ٢، ص ٤٠٣ ؛ جـ ٦،ص ١٥٨ .ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما سئل عنه مفتي تونس أبو القاسم الرصاع " عن رجل أعطى بضاعة أمانة متجر بها في بلاد المغرب والمواضع المأذون فيها عادة، فذهب المبعوث معه بالمال إلى المغرب، ثم قدم وادعى أنه أودعه ببلاد المغرب، وأن العدو أخذ

٧٦٣هـ/١٣٦١م قام عرب بني الحارث بأعمال التخريب والنهب وقطع الطريق(٢). كما قام عرب الشاوية بالثورة على السلطة الحاكمة عام ٨٤٦هـ/١٤٤٤م وقاموا بقطع الطرق التجارية ونشر الرعب والفساد(٣).

ولم تتمكن السلطة المرينية من إعادة الاستقرار والأمن إلى الواجهة الصحراوية المغربية، مما أدى بالقوافل التجارية إلى التخلي عنها لصالح بلدان المغربين الأوسط والأدنى، التي كانت تنعم بسلام نسبي(٤).

تلك البلدة لأنه مسافر بالمتاع من بلد فاس إليها، وطريقها مخوف، وتعلق الضمان بذمته، فلا يسقط الضمان عنه بدخول المتاع إلى البلدة المأمونة وأثبت أن الطريق مخوف". ابن مرزوق: أجوبة الفقهاء ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦. كما سئل عبد الله العبدوسي " عمن يجوز الناس من المواضع المخوفة، ويأخذ منهم على ذلك دراهم...وهذا ما يقع به الحكم...وهو الزطاطة، ومعناه ما يعطي لمن يحمي الناس في المواضع المخوفة". مجهول :شرح العمل الفاسي،ص ٧٨.

(١) الونشريسي : مصدر سابق،جـ ٨،ص ٤٣٥ ،٤٣٦؛محمد فتحة :النوازل الفقهية،ص ٤٠٤ ؛محمود إسماعيل : الإقطاع في العالم الإسلامي،من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجري بين الجدل النظري والواقع التاريخي،حوليات كلية الآداب،مجلس النشر العلمي،الحولية ١١،الرسالة ٦٩،الكويت،١٩٨٩م،ص ٣٣.

Lombar (Maurice): op.cit, p.234-239.

Mantran (Robert):L'expansion musulmane (VIIe-XIe siècle),Presses Universitaires De Francem ,Paris,1988, P. 207-215 .

Sourdel (Dominique):L'Islam médiéval. In: Revue de l'histoire des religions, tome 198, n°3, 1981, pp. 311-314.

(٢) ابن الخطيب:نفاضة الجراب ،جـ ٢،ص ٦٨ ،٧٤؛ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٥٨ م،هامش ١٠٧،ص ١٤٠، ١٤٤، ١٥٠؛ أحمد التوفيق:دراسة تاريخية وحضارية حول آسفي، مقال من كتاب أعمال الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي، الرباط،١٩٨٨م، ص ٦٧ – ٧٥.

(٣) ابن القاضي : درة الحجال في أسماء الرجال،تحقيق محمد الأحمدي أبو النور،مكتبة دار التراث (القاهرة)، المكتبة العتيقة (تونس)، ط ١، ١٩٧١م،ص ٣٣٨؛ الناصري:مرجع سابق ،جـ ٤،ص ٩٦. إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ،جـ ٢،ص ٦٣ ،٩٦؛ الحريري: مرجع سابق ، ص ١٨٥.

(٤) عبد العزيز العلوي:علاقة التجارة الصحراوية بالتجارة البحرية في المغرب المريني ،أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق ، جامعة الحسن الثاني ، المغرب،الدار البيضاء، ١٩٨٩م،ج ٢،ص ٢٦٤.للمزيد حول تلك النقطة راجع:

Rosenberger (Bernard): L'histoire économique du Maghreb »,Handbuch der Orientalistik,Geschichte der islamischen Länder, , Wirtschaftsgeschichte des

أدت كل هذه المستجدات إلى فقد السلطة المرينية تحكمها في إحدى أهم الموارد المالية التي بنى على أساسها توازناته الداخلية، ونتج عن ذلك أن التجارة المغربية أصبحت تعاني من المنافسة الخارجية على الصعيد الإقليمي؛ حيث صار تجار تونس يأتون إلى المناطق الواقعة جنوب المغرب الأقصى للتزود بحاجتهم من سلع بلاد السودان ، في الوقت الذي عمل فيه بنو عبد الواد بدورهم على تحويل تجارة الساورة وكَوارة نحو مجالاتهم بمساعدة الأحلاف من عرب المعقل، وأيضا عندما اندفع تجار مصر نحو الأسواق السودانية،فدخلت بذلك السلع المغربية، وخاصة المنسوجات منها، في منافسة غير متكافئة مع مثيلاتها المصرية، والنتيجة إسهام هذه الظروف مجتمعة في تعميق أزمة تجارة القوافل بالمغرب الأقصى وإن لم تستطع القضاء عليها بشكل نهائي[١]؛الأمر الذي دفع بالسلطة المرينية إلى اتخاذ إجراءات أخرى، لعلها تستعيد سيطرتها على التجارة القوافلية[٢]،ولربما كانت رحلة ابن بطوطة المتوفى عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م، إلى السودان الغربي من ضمن الإجراءات التي تبنتها السلطة المرينية لتحقيق ذلك الهدف، وهو ما يدل أيضًا على أن الأزمة التي عرفتها طرق التجارة العابرة للصحراء بدأت بوادرها مع نهايات العصر المريني الأول[٣].

---

vorderen Orients in islamischer Zeit ,leiden ,sechster Abschnitt, Teil 1, 1977, p. 209-212.

Dévisse (Jean):« Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval du XIe au XVIe siècle » . In: Journal de la Société des Africanistes, 1973, tome 43, fascicule 2. pp. 271-272.

(١)أنظر: محمد القبلي:تحيين وتركيب، ص ٢٣٩ ؛

Kably:Société:Pouvoir et Religion au Maroc ,op.cit, P.160 et suivantes.232 et suivantes.

(٢) أنظر: مصطفى نشاط: المغرب المريني وأزمة القرن ٨هـ/١٤م النقدية ، ص ٦ ؛لاكوست (أيف): العلامة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان ، دار ابن خلدون، بيروت، ط ١، ١٩٧٤م، ص ٢٤ ؛عز الدين عقيبي: صفحات من صراع الدول بالمغرب الإسلامي من أجل السيطرة على مسالك الاتصالات التجارية الصحراوية ، مجلة علوم الإنسان والمجتمع ، العدد ٢١، جامعة بسكرة، الجزائر،٢٠١٦م، ص ٣٦٣ – ٣٨٤.

(٣) أنظر:مصطفى نشاط: البعد التجاري في رحلة ابن بطوطة إلى السودان، ندوة ملتقيات ابن بطوطة الدولية للتواصل بين الثقافات ،مدرسة الملك فهد العليا للترجمة ،جامعة عبد المالك السعدي، طنجة، المغرب، ١٩٩٣م، ص ٢٥٣ – ٢٧٢؛ محمد الشريف: ابن بطوطة وأزمة التجارة الصحراوية في القرن الرابع عش ،ندوة ملتقيات ابن بطوطة الدولية للتواصل بين الثقافات،الناشر: مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة،جامعة المالك السعدي، طنجة، ١٩٩٣م، ص ١٢٥ – ١٤٢؛ أحمد الفاسي: موقع رحلة بن بطوطة

سادساً ــ ضعف وسائل النقل التجاري وتزايد أعمال القرصنة:

انتبه الباحثون إلى افتقار التجارة الداخلية في المغرب الأقصى خلال العصر المريني ،إلى بعض وسائل النقل المهمة ،مثل العربة[١]، والاعتماد على بعض الدواب[٢]،وكذلك قلة أو انعدام الإشارة إلى استعمال الأنهار في نقل السلع[٣]؛ مما كان له أثره الفعّال في التقليص من حجم البضائع المنقولة[٤]، وعلى أسعارها[٥]،فلم يعد المغرب المريني خلال العصر المريني الثاني قادراً على الإسهام في تلبية الحاجيات الأوروبية من الذهب بحكم محدودية حمولة وسرعة الجمل[٦].

في المشاريع السياسية والاقتصادية للسلطان المريني أبي عنان،ندوة ملتقيات ابن بطوطة الدولية للتواصل بين الثقافات،مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة،جامعة عبد المالك السعدي، المغرب، ١٩٩٣م، ص ١٤٣ – ١٦٠ .

(1)Fernand Braudel :La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II ,Librairie Armand Colin, paris ,5 eme edition ,1982,p 159.

(٢) ابن الحاج : مصدر سابق،ج ٤،ص ٤٩ – ٥١؛العقباني :مصدر سابق،ص ٢٧٢؛ الونشريسي :مصدر سابق،ج ٥،ص ٩٣، ٢٠٣ ،٢٧٢، ٢٧٩ – ٢٨٣؛ ج ٨، ص ١٨١ – ١٨٢، ١٩٥ ؛ محمد فتحة: مرجع سابق، ص ٣٠٩؛

Brunschvig (Robert): La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVème siècle , Adrien - Maisonneuve ,Paris,1982 ,Vol.2 , P.236..

Fernand Braudel: op.cit, P.159

(٣) الجزنائي: جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط،ط ٢، ١٩٩١م،ص ٣٧ – ٣٨؛ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، الرباط ١٩٧٣م ،ص ٤٥؛الوزان :وصف افريقيا،ج ٢،ص ٢٤٩؛محمد فتحة: مرجع سابق ، ص ٣٠٩.

(4) Rosenberger (Bernard) : l'Alimentation au Maroc (XVIe-XVIIIe siècles), Annales. Histoire, Sciences sociales ,Mai-AOUT,1980,P. 485.

(٥) محمد فتحة:مرجع سابق، ص٣٠٧ .

(٦)مصطفى نشاط: المغرب المريني وأزمة القرن ٨هـ/١٤م النقدية ، ص ١٣ .وكان الأمر يستوجب توفير عشرين جملا ومدة تتراوح ما بين ثمانية وعشرة أسابيع لنقل طن من التبر من السودان إلى السواحل المغربية . أنظر:

Godinho (Vitorino Magalhaes): op.cit, P.119.

كما أن النقل البحري كان يواجه صعوبات جمة خاصة فيما يتعلق بالصعوبات التقنية، التي يواجهها غيرهم من البلاد الأوروبية[١]؛فالجميع وإلى غاية القرن ٦هـ/١٢م، لم ينجحوا في التغلب على الصعوبات التقنية للملاحة؛كالمعرفة بحركات الرياح،واستعمال الخرائط، والبوصلة[٢]، بالإضافة إلى تزايد النزاعات التي كان يشهدها النقل البحري بشأن ثمن الكراء[٣].

ونتيجة للطابع الحربي الذي تميزت به الدولة المرينية ،فإنها لم تولِ اهتماماً كبيراً بالأسطول التجاري،مقارنة مع أسطولها العسكري[٤]. وكانت معظم قطع الأسطول تُستخدم في

(1) Dufourcq (Ch. E):L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIVe siècles :de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou-1-Hassan (1331),Presses universitaires de France,Paris,1966, P.171.

(٢) وهى معرفة لم يتم اكتسابها إلا بعد هذا التاريخ خلال أواسط القرن الرابع عشر الميلادي ،أنظر:

Mauny (Raymond) : Les navigations médiévales sur les côtes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1434) , Centro de Estudos Históricos Ultramarinos , Lisboa, 1960,P.44 et Suivt.

Godinho (Vitorino Magalhaes): op.cit,P.49.

(٣) للمزيد حول تلك النقطة ،راجع: أبو فراس: أكرية السفن وأحكام النوتي، تحقيق محمد زهدور، أورده عبد الفتاح مراد، أصول القانون البحري، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٣٥ – ٤٨؛ محمد سعيد الصمدي: قضايا البحر في الغرب الإسلامي من خلال المعيار للونشريسي، مجلة البحث العلمي، العدد ٤٦، المغرب، ١٩٩٩م، ص ١٤٢ – ١٤٧.

(٤) محمد القبلي: مراجعات،ص ٦٠ ؛ مصطفى نشاط: *جنوة وبلاد المغرب* من سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م إلى سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م، مساهمة في دراسة العلاقات الإيطالية *المغربية* أواخر العصر الوسيط، مطابع الرباط نت،الرباط، ٢٠١٤م،ص ١٩٥ – ١٩٦ ؛التجارة بالمغرب الأقصى، ج ٢،ص ٣٣٤؛ عبد القادر جغلول: الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون،ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١١٥؛محمد فتحة : "جوانب من الحياة الاقتصادية المغربية ،ص ١١٥.حول ارتباط مصير الدولة المغربية بهذه القضية،أنظر:محمد القبلي :ما لم يرد في كتابات ابن خلدون ،ضمن أعمال ندوة ابن خلدون ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية،الرباط،١٩٨١م،ص ٣٥٢–٣٥٥؛مراجعات حول المجتمع والثقافة ،ص ٥٨–٦٠ ؛

Cahen (Claude):Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du moyen âge,' Studies in the Economic History of the Middle East,ed.M.A.Cook. (Ox -ford),London.1970,P.31-36.

Dufourcq (Ch. E): Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et Marine musulmane:données connues et problèmes en suspens. [Extrait des:"Actes du Congrès d'Histoire et de Civilisation du Maghreb",Tunis, 1979.vol l. P.164-168.

نقل الجنود والقتال فقط؛ ولذلك صار الناس بما فيهم العلماء، يتعودون على استعمال سفن النصارى بقصد السفر والحج والتجارة(١).

ولا شك أن عدم اهتمام السلطة المرينية بالأسطول التجاري كرّس التفوق الأوروبي، وأوجد جوًا من انعدام المنافسة بين الطرفين، أحجم فيه بعض التجار المغاربة عن التجارة في هذا المحور، وألزم غيرهم بنقل بضائعهم عبر السفن الأوروبية(٢)؛مما أفسح المجال أمام الأوروبيين لاحتكار عمليتي التصدير والاستيراد من وإلى الموانئ المغربية(٣).

وعلى الرغم من هذه المعطيات المهمة،فإنه لا يمكن أن نغفل استمرار تملك أهل الغرب الإسلامي لمراكب تجارية بقصد نقل البضائع والمسافرين(٤).

كما شهد العصر المريني الثاني تزايداً ملحوظاً لنشاط القراصنة(٥) بالحوض الغربي للبحر المتوسط(١)،ولا شك أن الخسائر التي تكبدتها التجارة المغربية من نشاطات القراصنة كانت

---

(١) الونشريسي:المعيار،ج ١،ص ٤٣٦ ؛الطاهر قدوري: أحكام الفقه المالكي والتأسيس للقانون البحري في الغرب الإسلامي، مجلة المذهب المالكي، العدد ٨، المغرب، ٢٠٠٩م، ص ٩١ – ٩٢؛

(Ch.E) Dufourcq: op.cit, P.170 – 180

(٢) مصطفى نشاط: جنوة وبلاد المغرب، ص ٢٤٠ .

(٣) أنظر: القبلي: مراجعات، ص ٦٠ ؛ مصطفى نشاط: المغرب المريني وأزمة القرن ٨هـ/١٤م النقدية، ص ١٠ ؛

Mas Latrie (Louis) : *op.cit*, pp. 522-525 .

Brunschvig (Robert): Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle:Abdalbasit b. Halil et Adorne, Éditeur Maisonneuve et Larose, paris,1936, pp.255-265.

Fernand Braudel: op.cit, PP.107-110.

Dufourcq: L'Espagne catalane et le Maghreb ,op.cit,*PP.136-138.*

Godinho (Vitorino Magalhaes):op.cit, *PP.99-102, 105-133 et 177.*

(٤) الونشريسي : مصدر سابق، ج ٤،ص ٢٢٤؛ ج ٨،ص٦٤، ٣٧١ – ٣٧٢؛ ج ١٠،ص ٤٠٦؛

Dufourcq: Commerce du Maghreb médiéval ,op.cit, PP.181-183.

(٥) القرصنة:هى قطع البحر واللصوصية فيه، والقرصان هو المغامر في عرض البحر يجوبه في أوقات السلم للقيام بأعمال اللصوصية وسرقة السفن التجارية المارة. أنظر: زكي مبارك:الجهاد البحري في المغرب الإسلامي –المفهوم الإسلامي الغربي– مجلة البحث العلمي، العدد ٤٥،الرباط،١٩٩٨م، ص ١٥. للمزيد أنظر: عبد الهادي التازي: موقف المغرب من القرصنة الدولية في العصر الوسيط، ندوة أكاديمية المملكة المغربية، الدورة ٩، أبريل ١٩٨٦م؛أحمد عزاوي:الأسطول، التجارة، القرصنة فيما بين القرنين (٦–٨هـ/١٢–١٤م)،أعمال ندوة البحر في تاريخ المغرب – كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، المغرب، ١٩٩٦م، ص ٧٧ – ٨٤؛عبد الرحمن بشير: القرصنة غربي المتوسط القرن ٢

فادحة[٢]؛ حيث لم تقتصر أعمال القرصنة آنذاك على الاستيلاء على السفن فقط، بل هاجمت الثغور،والمدن البحرية مثل:سبتة،وسلا،وأنفا ،وأسفي[٣]،ونهبت الأهالي والسفن الراسية في موانيها،ونشرت الرعب والخوف في البحر المتوسط ؛مما دفع أهالي تلك المدن لإخلاء سواحلها وموانيها فتضررت أنشطتها البحرية[٤].

– ٥ هـ/٨ – ١١م ، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٣٢، الرسالة ٣٥٧، الكويت ، ٢٠١٢م، ص ٨ – ٩٨؛حسن أميلي: مسألة الجهاد البحري بين القرصنة المشروعة ولصوصية البحر، ضمن :البحر في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة الندوات رقم ٧، جامعة الحسن الثاني، المحمدية،المغرب ، ١٩٩٦م،ص١٠٩ – ١١٩ .

(١) أنظر:محمد الشريف:دور الأسطول السبتي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط (القرن ١٢ – ١٤ م)، ضمن نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، منشورات مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الحداد يوسف إخوان، تطوان،ط١٩٩٦،١م، ص ١١٤ ؛أحمد عزاوي: الغرب الإسلامي من خلال رسائله القرنان ٧ و ٨هـ،مجلة أمل،المجلد ٨، العدد ٢٢، ٢٣، المغرب، ٢٠٠١م،ص٧١٨ – ٧٢٠، ٨٨٧ ؛ نجاة باشا: مرجع سابق، ص ١٠٠؛ إبراهيم حركات:الحياة الاقتصادية في العصر المريني، ص ١٣٠؛

Dufourcq(Ch.E): La vie quotidienne dans les ports méditerranéens au Moyen Age: Provence, Languedoc, Catalogne,Paris :Hachette , 1975,P.157.

Mas Latrie (Louis) : Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au moyen âge ,libraries de Firmin-Didot ,Paris,1986,P. 404 -413.

Fernand Braudel: op.cit, P.107 -108.

Arié (Rachel):L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492),É. de Boccard, Paris,1973,P. 272 – 273 .

Robert Brunschvig: La Berbérie orientale ,op.cit,Vol 2, ,P.95,96.

(٢) جمعة شيخة:كتب النوازل بالمغرب العربي في العصر الوسيط– حدودها وأبعادها، النشاط التجاري بين دار الحرب ودار السلام–،مجلة دراسات أندلسية، العدد ٥٠،تونس،٢٠١٣م، ص ٢٠.

(٣) مارمول كربخال:مرجع سابق،ج ٢،ص ٧١،ص ٨٧–٨٨،ص ١٣٥ ؛أمين توفيق الطيبي: دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية،منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية،طرابلس، ١٩٨٩م،ص ١٣٩؛

Dufourcq:L'Espagne catalane et le Maghreb,op.cit, P.466.

(٤) أنظر:ابن شاهين (عبد الباسط بن خليل): الروض الباسم،مخطوط مصور بالميكروفيلم بدار الكتب المصرية،في خزانة أحمد تيمور باشا،رقم (٢٤٠٣ تاريخ)، ص ٤٣؛ ابن حجر العسقلاني:إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى لشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج ٣، ص ٥١٣؛الناصري:مرجع سابق ، ج ١،ص ٣٨٤؛ج ٤، ص ٨٩ –٩٠؛أحمد بوشارب:قراصنة المحيط الأطلسي ، منشورات OKAD، الدار البيضاء، ١٩٩٨م، ص ٤ ؛

سابعاً ــ دور اليهود في تدهور النشاط التجاري:

حظي اليهود في العصر المريني بمكانة اقتصادية مهمة جعلتهم يتقلدون معظم الوظائف والأعمال المتعلقة بالشئون الاقتصادية والمالية تحديداً[١]، ليس بالمغرب الأقصى فحسب، بل في كل بلاد المغرب الإسلامي[٢]، وشهد العصر المريني الثاني بروز دور اليهود في حقل التجارة المرينية بوجه عام،وحققوا من خلالها أموالاً طائلة[٣]؛وبالرغم من ذلك، كان لليهود دور كبير في تدهور الاقتصاد المريني وانهياره؛حيث مارسوا الغش في المعاملات داخل الأسواق،فكانوا يضللون الناس في عملية البيع، وذلك عن طريق خلط السلع الرديئة بالجيدة، وبعد عملية الشراء يقوم التاجر اليهودي برفع سعر السلعة الجيدة؛ من أجل فصلها عن الرديئة [٤].

Dufourcq (Ch.E): Commerce du Maghreb médiéval ,op,cit, P. 170.

Chaunu (Pierre):L'expansion européenne du XIIIe au XVe siècle. In: Cahiers du monde hispanique et luso-brésilien, n°13, 1969. pp. 144-147.

Vallejo (Eduardo Aznar): Course et piraterie dans les relations entre la Castille et le Maroc pendant le Bas Moyen Âge, en L'Occident Musulman et l'Occident Chrétien au Moyen Âge (Colloque de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Mohammed V, Rabat, 2-4 novembre 1994),Hammam, Mohammed [Publ]. - Rabat ,1995, P. 67.

(١) مصطفى نشاط: إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم ٧٣،سلسلة بحوث ودراسات –٢٣–،جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب ،٢٠٠٣م ، ص ٦٣.

(٢)زهرة ميلودي: الرحلات البحرية ودور اليهود في تنشيط التجارة الساحلية للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، العدد ٣، الجزائر، ٢٠١٦م، ص ١٩٣؛

Brunschvig (Robert):La *Berbérie* ,op.cit,Vol II ,P.234.

Dufourcq(Ch.E):Chrétiens et musulmans durant les derniers siècles du Moyen Âge,In: Anuario de estudios medievales vol. 10 ,1980 ,P.222.· .

(٣) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، بيروت، دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢م،ص ٢٤؛ الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٢٤٤ ؛الوزان:مصدر سابق،ص ٩٨، ٩٩، ١٠١،١٠٥، ١١٤، ١١٧، ١١٩، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٢، ١٦٤، ١٧٦ ،١٨٥؛ محمد القبلي: تاريخ المغرب تحيين وتركيب،ص ٢٢٢ – ٢٢٤؛محمد الحبيب الخواجة:يهود المغرب العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة،معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٣م، ص ١٢ ؛إبراهيم حركات:الحياة الاقتصادية ،ص ١٣٩.

Gerber (Jane. S):Jewish society in Fez 1450-1700 :studies in communal and economic life , Brill , Leiden, 1980,P.16.

(٤) مجهول: قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، دراسة وتحقيق محمد فتحة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط ١ ،٢٠٠٤م، ص ٥٦ .

وخلال العصر المريني الثاني، بلغ الغش في النقود ذروته[١]،وكان لليهود الدور الأكبر في انتشار الذهب المسبوك المزيف المدلس[٢]،وكثيراً ما أشارت النوازل إلى مثل هذا التدليس[٣]، وإذا ما اكتشف أمر اليهودي سرعان ما كان يتخلص من العقاب بالرشاوى، والهدايا؛ ففسدت أمور الناس[٤]؛لذلك شددت الدولة المرينية إجراءاتها على اليهود، وألزمتهم بالتعامل بالنقد الخالص، وتجنب الزائف منه بأمر من السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن (٧٦٧-٧٧٤هـ/١٣٦٥-١٣٧٢م) [٥].

وبالرغم من كل ذلك التشديد وتلك المراقبة،إلا أن اليهود استمروا في تزييف العملة؛ حيث استغل اليهود سك النقود أحياناً خارج دور الضرب، إذ ترد إشارة تؤكد سك النقد في فندق الشماعين في فاس[٦]،وكثرت شكاوى الناس من ألاعيب اليهود في تزييف النقود[٧]، ومن تلك الألاعيب أنهم قاموا بدار السكة في سجلماسة بأخذ كمية من الفضة عند عملية السبك ووضعوها

---

(١) ابن يوسف الحكيم:مصدر سابق ، ص ١٣٩. حددت المصادر المتخصصة أشكال التزييف والتلاعب في النقود بشكلين:إما بكسرها ويسمى " إفساد للوصف، وإما بقرضها فيكون إنقاص للوزن ". أنظر:ابن يوسف الحكيم:المصدر السابق ، ص ١٨٣.

(٢) ابن مرزوق:المسند الصحيح الحسن، ص ٢٣٠ – ٢٣٣. ابن يوسف الحكيم : مصدر سابق ،ص٧٩، ٩٤ – ٩٦ ؛الوزان: مصدر سابق ، ج ١، ص ٩٩؛عمر آفا :مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن ١٩ سوس ١٨٢٢- ١٩٠٢، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط، ط ١، ١٩٨٨م،ص ٢٤ – ٣١؛ طاهر راغب:تاريخ نقود دول المغرب من ٤٤١ إلى ٩٢٨هـ ،دراسة في التاريخ والحضارة،كلية دار العلوم،جامعة القاهرة، ط ١،١٩٩٤م،ص ٣٨٢ ؛ بروديل فرنان: حركية الرأسمالية، ترجمة محمد البكري ومحمد بولعيش، منشورات عيون ، الدار البيضاء، ١٩٨٧م، ص ٤٤ ؛

David Rose:the Jews of Morocco Under the Marinides,Center for Advanced Judaic Studies University of Pennsylvania,Vol.54,No.4 ,1964,P. 271 – 287.

(٣) ورد سؤال في إحدى النوازل عمن ابتاع دراهم فقطعها وحماها بالنار فوجدها نحاساً غير خالص. راجع الونشريسي : مصدر سابق ، ج ٥،ص ٢٠٢؛ج ٦،ص ٦٠،٧٥ ؛ج ٨،ص ٤٤٧.

(٤) ابن يوسف الحكيم : مصدر سابق ،ص ٩٦.

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٩ – ١٤٠ .

(٦) ابن مرزوق: مصدر سابق، ص ٢٣٠-٢٣٣ .

(٧) ابن يوسف الحكيم: مصدر سابق ، ص ٩٤- ٩٦.

في جوف قطعة من الفحم الذي سبكوه به بعد ثقبها وذره فيها، فاخذوا ذهباً يساوي مقدارًا من الفضة التي وضعوها(١).

وتمتع اليهود خلال عهد السلطان عبد الحق المريني (٨٢٣-٨٦٩هـ/١٤٢٠-١٤٦٤م)، آخر سلاطين بني مرين، بامتيازات اقتصادية كبيرة عندما تولى اليهوديان هارون وشاويل الوزارة(٢)؛حيث أقدما على إسقاط الضرائب عن التجار اليهود(٣)،في حين استمر فرض الضرائب الباهظة على التجار، والصناع المسلمين داخل أسواق مدينة فاس(٤)، وكذلك أقدم هذان الوزيران على مصادرة أموال التجار المسلمين(٥) ،بالإضافة إلى قيام الحسين اليهودي قائد الشرطة في فاس ،بفرض العديد من المغارم على الرعية ،ولم يستثن في ذلك الأمر أحدًا، حتى العلماء والشرفاء(٦).

واستمر تغلغل اليهود في الاقتصاد المريني خلال العصر المريني الثاني ؛لدرجة أنهم سيطروا على الحوانيت وقيساريات فاس، وطردوا منها المسلمين غير قادرين على الدفع(٧)،كما سيطر اليهود أيضاً على الأموال الموجودة في خزانة الدولة(٨)؛حيث ازداد عدد الصيارفة اليهود

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٢) ابن شاهين (عبد الباسط بن خليل): مصدر سابق ورقة ١٢؛ مجهول:مصدر سابق ، ص ٦٠ – ٦٢ ؛الناصري: مرجع سابق ، ج ٤، ص ٩٨؛

Barbour (Nevill): Morocco, Published by Thames and Hudson, London, 1965, P.135.

(٣) ابن الخطيب:نفاضة الجراب ، ج ٢،ص ٢٣٢ ؛

Goitein (Shelomo Dov) : Letters of Medieval Jewish Traders Translated from the Arabic with Introductions and Notes ,Princeton University, Press, 1975,P.184.

(٤) عمر الباروني:العلاقات التجارية بين المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية،العدد ٢، ليبيا، ١٩٨٦م، ص ٣٢٦.

(٥) بن يوسف الحكيم: مصدر سابق ،ص ٩٥؛الناصري: مرجع سابق ،ج ٤،ص ٩٨ ؛

Brunschvig (Robert):Deux récits de voyage inédits,op.cit ,PP.46-51.

(٦) الناصري: مرجع سابق ، ج ٤،ص ٩٨.

(٧) مجهول:مصدر سابق، ص ٦١؛ فاطمة بوعمامة:اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنيين السابع والثامن،مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر،٢٠١١م، ص ٢٠٣؛ مرسديس كارسيا أرنال: البلديون الفاسيون مجموعة من المسلمين الجدد من أصل يهودى، ترجمة عبد العزيز بل الفايدة، مجلة أمل ،المجلد ٩، العدد ٢٧، المغرب، ٢٠٠١م ، ص ٢٨٥.

(8)Goitein (Shelomo Dov):Letters of medieval jewish ,op.cit, P.18

خلال العصر المريني الثاني،الذين غلب على معاملتهم الفساد والربا[١]،على الرغم من محاذير الفقهاء للتجار المسلمين من خطورة التعامل مع الصيارفة اليهود في ذلك المجال[٢]؛لأن هدفهم جمع المال دون عودة الفائدة لصالح الاقتصاد المريني الذي تدهور بشدة نتيجة تحكم اليهود فيه[٣]؛ولهذا ظهرت كثير من الفتاوى التي حذرت التعامل بذلك، ودعت إلى ضرورة التزام الحدود الشرعية الواجب العمل بها [٤].

وصار التجار المسلمون يستلفون من اليهود،الذين أثقلوا كاهلهم بالديون[٥]؛وبالطبع فإن قروض اليهود للتجار المسلمين ومداينتهم لآجال يتم الاتفاق عليها؛ أوقعت التجار المسلمين تحت رحمة التجار اليهود[٦]؛مما أدى لزيادة تحكم الأخيرين في الأسواق، خاصة أسواق العاصمة فاس[٧]، وتدهور أحوال التجار المسلمين،وانهيار تجارتهم[٨].

الخاتمة

عرضت هذه الدراسة لموضوع : مظاهر تدهور النشاط التجاري بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني الثاني (٧٥٩-٨٦٩هـ/١٣٥٨-١٤٦٥م)، وقد تمخضت هذه الدراسة عن نتائج عديدة ، أهمها :أنّ الحروب والفتن، وما رافقها من ضروب الغصب والتعدي، أدت إلى انهيار حركة التجارة الداخلية، وتقلص عمران العديد من المدن التجارية، فضلاً عن قلة أعداد ساكني الفنادق.

---

(١) الونشريسي:مصدر سابق،ج ١٢،ص ٦٤.

(٢) المصدر السابق،ج ٥،ص ٢٤٤ ؛ ج٦،ص ٣٠٦.

(٣) مجهول:مصدر سابق ، ص ٥٧، ٦٠، ٦١ ؛
Goitein (Shelomo Dov) :Jews and Arabs: Their Contacts Through the Ages, Schocken Books, New York, 1955, p. 184 .

(٤) الونشريسي: مصدر سابق ، ج ٦، ص ٣٠٦ .

(٥) المصدر السابق ،ج ١٠،ص ٤٠٩؛ بوزياني الدراجي:نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٣م، ص ٢١٤.

(٦) إبراهيم القادري بوتشيش: الإسلام السري في المغرب العربي،سينا للنشر،ط ١، القاهرة،١٩٩٥م،ص ٢١٩؛عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٧) إبراهيم حركات :المغرب عبر التاريخ،ج ٢،ص ٦٣.

(٨) الوزان:مصدر سابق،ص ٣٩٢.

وأبرزت الدراسة أنّ تدخل الدولة في النشاط التجاري،واحتكارها للعديد من السلع والمنتجات ، قد أضر بالتجارة والعاملين فيها ، وأضر بالدولة نفسها.

وبينت الدراسة أنّ فرض السلطة المرينية العديد من الضرائب،والمكوس، والقبالات على العاملين بالنشاط التجاري، قد أضر بالنشاط التجاري وأدى إلى تدهوره؛ ذلك النشاط الذي تأثر أيضًا بغياب دور المحتسب داخل الأسواق؛ وهو ما نتج عنه انتشار الفساد في البيوع والتعاملات.

وتوصلت الدراسة إلى أنّ السلطة المرينية لم تتمكن من إعادة الاستقرار والأمن إلى الطرق والمسالك التجارية بالمغرب الأقصى،مما أدى بالقوافل التجارية إلى التخلي عنها لصالح بلدان المغربين الأدنى والأوسط، التي كانت تنعم بسلام نسبي؛ ففقدت بذلك السلطة المرينية موردا مالياً هاماً كان يغذي خزينتها.

وأبرزت الدراسة أن التجارة الداخلية في المغرب الأقصى خلال العصر المريني الثاني كانت تفتقر ،إلى وسائل النقل المهمة مما كان له أثره الفعّال في التقليص من حجم البضائع المنقولة وعلى أسعارها.

وبينت الدراسة فداحة الخسائر التي تكبدتها التجارة المغربية من نشاطات القراصنة بالحوض الغربي للبحر المتوسط.

وأخيرًا أوضحت الدراسة قيام اليهود بالعديد من الممارسات التجارية الفاسدة؛ مما أدى إلى تدهور أحوال التجار المسلمين،وانهيار تجارتهم .